السّمات الأسلوبيّة فـــي كتاب محاضـــرات للشـــيخ الدكتـــور محمد المنصف عبد الله القماطي

د.عليّ البهلول حسن ـ كليّة التربية طرابلس ـ جامعة طرابلس

المقدمـــــــــــــة :

الحمد لله ربّ العالمين، أجرى أفعال عباده على مقتضى مراده، حبّب إلى المؤمنين الإيمان، وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، والصلاة والسلام على نبي الهدى، وإمام التقوى، سيّد الأوّلين والآخرين، ورسول رب العالمين، اللهم صلّ وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين.

أمّا بعد:

فقد تيسّـــــر لي - بعون الله وحمده - أن واكبت الدكتور محمّـد المنصف القماطي في رحلات علميّة عديدة ، وقد أثّر أسلوبه في تكويني الأدبي ، فانعكس ذلك في كتابة أبحاثي ورسائلي ، فالرّابط الذي ربطنـــي بهذا العالم الجليل هو الأخـــوّة الإيمانيّة، المتجسّدة في الشيخ الدكتور محمد عبد الله القماطي قـــولًا وفعلًا ، إذ عرفته على بسط المساجد والزوايا في حلق القرآن والعلم والذكـــر، قبل أن أعرفه على مقاعـد الدراسة، ورافقته في بعض محاضراته في الدراسات العليا مستمعًا لا نظاميًّا ، وقد رافقني في مسيرتي البحثيّة ، في كتابة رسالتي (الإجازة العالية) وأطروحتي (الإجازة الدقيقة) وقد عرضتهما عليه عرضًا كاملاً، وكان في كلّ ذلك يعالج الهنات اللغويّة والأسلوبيّة، والذي يعرف الشـــيخ ويقرأ هذا الكتاب يتبيّن له أن شخصيّة القماطي ظاهـــرة في هذا البحث ، كما هي ظاهرة في غيره من قنوات التعليم مثل : المحاضرات، ودروس الوعظ ، فالوقار الذي يعتلي الشيخ كان دائما ما يبعده عن مواطن الهزل والسخرية ؛ لذا فالباحث في تآليف القماطي، لا يجد أسلوب السخرية والتهكّم، اللهم ما جاء في سرد تاريخيّ، وهو قليل جدًّا، وهذا منهجه في كتاباته، إذ يغلب عليها السرد العلمي، موشّحا ذلك السرد بفخامة العبارة، وإحكام الصنعة الأدبية، غير أنه يبتعد به عن هذا الفنّ، وقد ورد من هذا الفنّ مثال واحد في هذا الكتاب، جاء به الكاتب في سياقه التاريخي، يؤرّخ لفترة زمنيّة سابقة من الحكم في البلاد الليبية وقد أهداني - رحمه الله تعالى- كتابه هذا، عند أوّل صدوره ، وكان أهم واجباتي تجاه هذا العلم الجليل إجراء دراسة تتناول الجوانب الأدبيّة في كتاباته ، وما فرضته عليّ ضرورة الوفاء، وقضاء الحقوق، جعلني أستجيب،

وأراد الله –عز في علاه- أن تكون هذه الهدية النفيسة ميدان بحثي، وهذه حكمة من حكمه -سبحانه وتعالى- وقدّر أن يكون لي مع هذا العلم الجليل لقاء علميًّا بعد موته – رحمه الله تعالى- وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

موضع الدراســـــة:

الدراسة تتناول أهم السمات الأسلوبيّة في هذا الكتاب، نظرًا للقيمة الأدبيّة التي أتحفنا بها صاحب الكتاب، ناهيك عن الخرائد الأخر التي لا مجال لتناولها في هذا البحث.

أسباب اختيار الموضـــوع:

1- تعُدُّدُ المشارب العلميّة والمعرفيّة للمؤلّف، فهو من روّاد المدرسة القديمة ، ومدرسة التجديد والحداثة ، وهذا بلا شكّ شكّل نسجًا قلميًّا له سمات بارزة، جديرة بالبحث والدراسة.

2- عــرف عن صاحب الكتاب علوّ قدمه في العلوم : اللغويّة والنحويّة والصرفيّة والصوتيّة والشرعيّة، أكثر من الفنون الأدبيّة، وهذا ما أراد الباحث توضيحه في هذه الورقة ، إذ الشيخ كان خطيبًا مفوّهًا، وعالمًا بآداب العرب ، وحكمهم، وأمثالهم، ويحفظ كثيرًا من أشعارهم، ويروي كثيرًا من مشاهدهم وأيّامهم.

3- بيانُ أن علوم العربيّة برسوخها في أعماق الحضارة الإنسانيّة، فإن من أهم سماتها احتضانها لكلّ جديدٍ مفيدٍ في سلّم الحضارة، ولم تكن يومًا حجر عثرة أمام مريديها، وهذا الكتاب دليل ملموس، وشاهد عدلٍ، على أورده الباحث.

منهجيّة البحث:

استخدم الباحث في إنجاز بحثه المنهج الاستقرائي التحليلي، مستعينًا في ذلك بالدراسات الأدبيّة.

تمهيد :

الملاحظ في كتابات القماطي أنه يتبع نظامًا علميًّا في إيراد المادة ، وهــذا دون أدنى شكٍّ من محصّلة دراسته الأكاديميّة ، وخبرته الواسعة في التأليف ، والإشــراف على الرسائل العلميّة، ومناقشاته الكثيرة لرسائل الماجستير والأبحاث الجامعيّة، والأبعد من ذلك أن هذا الأمر أصبح للشيخ أسلوب حياة وفكر، يلتزمه حتى في خطبه الجمعية، ودروسه الوعظية في المساجد والزوايا والمحافل الدينية والمناسبات الاجتماعيّة، والقارئ لهذا الكتاب يتبيّن له من أول قراءة أن مؤلفه حريص كلّ الحرص على اتباع المنهج العلمي، ومن ذلك:

عنونة المحاضرات:

فصاحب الكتاب جعل عنوانًا خاصًّا لكلّ محاضرة، تنبيء من قرأها بموضوع المحاضرة والمشكلة التي تعالجها، وقد استعمل أسلوب السجع في عنوان واحد، فتحلى بإيقاعه، الذي زاده رواءً ورونقًا، والمقالة هي: (دور المسجد بين الماضي البعيد والمستقبل السعيد).

التعريف بالمصطلحات:

المصطلحات العلميّة في كلّ فنّ لها مفاهيمها ودلالاتها، فلا يمكن أن تُبتّ الأحكام على الأشياء حتى تفهم حقائقها ومعانيها، ولو كان غير ذلك لكانت تلك الأحكام منافية للصواب، وكما قيل: الحكم على الشيء فرع عن تصوره ([1]) ، والمؤلف أورد تعريفات المصطلحات التي أوردها في محاضراته، مظهرًا التعريف اللغوي لكل مصطلح، متبوعًا بالتعريف الاصطلاحي، مشيرًا إلى تلك المصادر (قديمها وحديثها) التي استقى منها تلك التعريفات، ومثال ذلك التعريف الذي أورده في مصطلح (المصالحة) حيث يقول : (المصالحة والتصالح والإصلاح، والصلح مأخوذة من الصلاح، وهو الاستقامة، كما يذكر التهانوي في (كشاف اصطلاحات الفنون) ، وصلح الشيء إذا حسن وكمل ولم يصبه فساد، فهو إنهاء للخصومة ، وقطع للمنازعة ، أو منع لهما لتسلم العلاقة بين طرفي الخصام والنزاع ، ويعرف بأنه (ترك حقّ، أو دعوى مقابل عوض، لقطع نزاع أو خوف وقوعه كما([2]) ، فالمؤلّف يستشهد بالآيات القرآنيّة والأحاديث النبوية وأقوال العرب عند التعريف بتلك المصطلحات ، زيادة في الفهم، وتقريب الصورة ، ومن ذلك قوله في تعريف المزارعة والمغارسة : (المزارعة والمغارسة، والمساقاة بين صاحب الأرض ومن يزرعها له أو يغرسها أو يسقي نباتها بحصة من ثمارها، قال- تعالى- : (**أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**)([3]) .وفي الحديث الصحيح : " **ما من مسلم يغرس غرسا، أويزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**"([4]).

ومن استشهاداته بالشواهد الشعريّة قوله في تعريف الشباب ، مستشهدًا بقول أبي العتاهية : (وطور الشباب ما بين البلوغ إلى الكهولة، حيث يبدأ في الانتشار بالرأس الشيب، وهو علامة انقضاء الشباب، كما قال الشاعر

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب"([5])([6])

استخدام قواعـــد العلوم : كتابات القماطي ترتكز في منطلقها على القواعد الخاصة بكلّ فـــن من فنون المعرفة ؛ كي تكون داعمة لما يقرّه من تفسيرات وأحكام، فمن ذلك قوله : " وكثير من الناس يدفعهم الطمع إلى التـورط في معاملات غير شرعيّة من الكسب الحرام تجـــرّ عليهم المآثم ، والقاعدة أنّ الشرع سيّد الجميع..... ، وقد شـــرع الله لنا معاملات كثيرة تقوم على العدل والإحسان، وتقوّي الروابط الاجتماعيّة ، إذ الأصل في الأشياء الإباحة، وحرّم علينا أشياء قليلة ؛ لحماية الضرورات الخمس: الدين ، والنفس، والعرض، والمال، والعقل " .([7])

هيكلة الموضـــــوع:

غالبًا ما يضع الكاتب هيكلة لمحاضراته، جامعًا بين الأصالة والحداثة في صياغة مادته العلميّة، لذا سنأتي على أبرز السّمات التي وشّح بها المركّب الثلاثي للموضوع، ألا وهي المقدّمة والمضمون والخاتمة:

1- المقدّمـــــة : البسملة لم ترد في مقدّمات الكاتب إلا مـــرّة واحدة ، وكانت افتتاحية محاضرة (المفهوم والأبعاد للمصالحة الوطنية...) ، أمّا الحمدلة فكانت في جميع المقدمات، وهذه الافتتاحية هي أُسُّ الكتابة عند كتّابنا المسلين قدم الحضارة الإسلاميّة ، وهذا الذي استقاه القماطي من مشايخه ومعلّميه ، وأجلّهم قدرًا، وأعظمهم فضلا معلّم البشرية سيدنا محمّد - صلى الله عليه وسلم - القائل في الحديث الذي رواه أبو هريرة: **" كُلُّ أَمْـرٍ ذِي بَالٍ، لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ، أَقْطَعُ "**([8]) ، كما يعقبها بالصلاة والسلام على سيدنا محمّد - صلى الله عليه وسلم - آخذًا بأمره - تعالى- : [**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**] ([9]) ، وذلك في أشرف مواطن، مواطن العلم والمعرفة.

والذي يقـــرأ الموضوعات التي تناولها الكتاب ، وينظـــر إلى عناوينها يتبيّن له الموضوع الذي يعالجه الكاتب من أسطره الأول ، وهذا ما يعرف عند علماء البلاغة ببراعة الاستهلال ، ومثال على ذلك قوله في محاضرة (الإدارة في الإسلام)، (وبعد : فقد كان للمسلمين دور بارز في تنظيم دولة الإسلام، ونشأة الحضارة الإسلاميّة، التي كانت من دعائمها (التربيّة والتعليم)...).

والنهج العلمي الذي اتبعه في مقدّماته أنه يشير إلى التقســـيم الذي انضوت عليه المحاضرة ، حتى يسهل تصورها في ذهن المتلقّي أو القارئ ، فقد جاء في مقدمة

محاضرته : (..التاريخ والواقـــع) ، (وتتألف المحاضرة من قسمين : جانب تاريخي..... وجانب واقعي يمثّل الواقع المعيشي ....).

2- **المضمـــــون:** المحاضرات التي حواها هذا الكتاب كلها تدور حول القيم الإسلاميّة والإنسانيّة، حرص كاتبها على إيرادها بطريقة علميّة دقيقة، وسلسة ، مراعيا فيها التقسيمات المنطقية لجزئيات كلّ محاضرة ، كما أن النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة لها حضور كبير في كلّ الموضوعات، مقيما بها الحجج والبراهين في تقرير أحكامه، وإيضاح ما هو متشابه من أمور، فمن أمثلة ذلك قوله في محاضرة (حقوق المسلمين بعامة وحقوق الرحم والجوار)، (وقد كانت العرب تقسم بها (الرحم) بقولها: ناشدتك الله والرحم، ومع ذلك تقطّعها؛ لأنها تراها من أسباب التنافس، فنهى الله –تعالى- عن ذلك وأمر بوصلها بقول الله –تعالى - : [**وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ**](10) ، ويقول - أيضا - في سورة محمد - صلى الله عليه وسلم - **[فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ]**(11) ، وفي الحديث الصحيح: **" مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ "**(12) ، والملاحظ كذلك كثرة استشهاده بالأبيات الشعرية ، لتقريب الصورة، واستشراف المعاني ، فمن ذلك قوله في محاضرة (رسالة إلى الشباب): (واحذر أن تكون مطية الجهل، وأن ينطبق عليك قول النابغة:

وأن يك عامر قد قال جهلا فإن مطيّة الجهل الشباب)(13)

واستخدم الكاتب اللغة العربيّة السهلة ، البعيدة عن التقعّر والغريب ، إذ لا يحتاج معها إلى معجم ؛ ومردّ ذلك إلى أن خطابه كان موجّها إلى عامّة الناس، لا يختص بطبقة معينة منهم ، وهذا الأمر يحسب له، فالخطاب في هذا المقام يقتضي مراعاة حال المتلقي، ومن يقـــرأ للقماطي يجده يحسن استخدام مفردات اللغة وتعبيراتها حسب أفهام المتلقّين، فتراه فـــي غير هذا المؤلّف وفي دروســـه قد اتخذ في خطاب المتخصّصين وطلبة العلم غير هذا الخطاب؛ لأنه - ومن واسع خبرته في مجال العربيّة- يدرك تمامًا في رسائله التي يرسلها من خلال مؤلفاته ، وخطبه، ومحاضراته، أمرين مهمّين وهما: الحال والمقام ، وهذا الأمر كثيرًا ما نبهني إليه أنا وزملائي في حلقات الدرس ، وفي قراءتي عليه رسالة (الماجستير) وأطروحة (الدكتوراه) وأنا في حال إعدادهما ، كثيرًا ما يتدخّل لتغيير بعض العبارات ، أو بعض الأساليب ، لا لأنها خالفت العربيّة ، بل

أراد بذلك مراعاة المقام الذي أكتب فيه، وأحوال من أخاطبهم ، لذا فقد صبغ عليّ أسلوبه في الكتابة والتأليف.

3- الخاتمـــة : وهـــو أعلق شيء يكون في ضمير السامع ، فحسن التخلّص فنّ لا يتقنه إلا من كانت له دربة في الكتابة ، والقماطي من أولئك المتمرّسين ، فتتنوع المخارج التي ينهي بها محاضراته ، فقد ينهي محاضرته بحديث شريف للتذكير، أو لإبراز صورة معين ة ، كما جاء في محاضرته (خطورة المال الحرام وفضل المال العام): " **كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ** "([14]) ، وقد يكون بيتا من الشعر مثل قوله في خاتمة محاضرة (رسالة إلى الشباب)

أمل البلاد على رقي شبابها إن كان حيا لا تخاف زوالا([15])

وقد يكـــون مثلا من الأمثال كما في محاضرته (حقوق المسلمين بعامة وحقوق الرحم والجوار) : "والليبيون يقولون: (جارك صابونك) لاتصال الجار بجاره، ومعرفته بأسراره حتى إنه يعوّضه في كثير من الأحيان عن حاجته لبعض الأهل". والغالب على محاضرات الشيخ أنه يختمها بتوصيات متعلقة بالموضوع التي تعالجه تلك المحاضرات.

السّمات الأسلوبيّـــة: للكاتب أسلوبه المتميّز في الكتابة ، فهو كما علمنا من خلال ما عرضناه في التمهيد أنّه تأثـــر بالمدرستين : مدرســـة التراث ، ومدرســـة الحداثة ، وهذا التلاقي جعله يهتم بالمؤثرات الجماليّة في صياغة الخطاب ، كما يهتم بالنواحي الشكلية في سرده ، وقد تميّزت كتاباته بمميزات عدّة ، ومن بينها :

الاستشهاد : كما أشـــرت في التمهيد أن الكاتب كان لا يأتي على جزئيّة إلا استشهد لها بآيات قرآنية ، وأحاديث نبويّة ، وبما قالته العرب من أشعار وحكم ، وأمثال، وأقوال مأثورة عربية وعاميّة وأعجميّة، وكذلك بما أثبته من شواهد تاريخيّـــة، ومن أمثلة ما ســـبق :

الشّـواهـــد القرآنيـــــة : جاء الكاتب بالآيات القرآنية مستشهدا بها في معرض كتابه؛ لأمور، أهمها : إقرار الأحكام التي ساقها في معرض حديثه، ومنها قوله في محاضرة (رسالة إلى الشباب): (فإذا علمت - أيها الشاب- المهالك والمفاسد للشباب

أيقنت أنّ من يدعوك إليها غاش لك، ينوي استغلالك، وقتل شبابك، فتذكر قول الله - تعالى-: **[وَلاَتُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ]**([16]) .

الأحاديث النبويـــــــة : يكون موضع الأحاديث النبوية في ســـرد الكاتب غالبا بعد الآيات القرآنيـــة، لذا فإن الاعتبارات التي ذكرها الباحث في الجزئية السابقة (الشواهد القرآنية) ، تجـــري على أختها: ففي إقـــرار الأحكام الشرعية ، نســـوق مثالا على ذلك، وهو قوله في سرد واجبات الموظف: (الأمانـــة المهنية للحفاظ على أسرار العمل. قال رســـول الله –صلى الله عليه وسلم -: **" أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ "**([17]).([18])

التذكير والاعتبار : (تجنب الغرور ولا تعتد برأيك في مواجهة الآراء الصائبة ، فقد يضعف ثقة الناس بك ، وقد يقودك إلى اتخاذ قرارات خاطئة بإفساد عشّالزوجيّة ، أو الانحراف ، والاقتران برفاق السوء، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يعطيك مثلاً حيّا لنتيجة الاقتران بهم، فيقول : **" مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ وَكِيرِ الحَدَّادِ، لاَ يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ المِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ، أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً"**([19]).([20]) .

ومن ذلك قولـــه - أيضا - : (وقبلهم كان النمرود الذي ملكه الله – تعالى- فزينت له نفسه أنه على كلّ شيء قدير، وجادله نبي الله إبراهيم – عليه السلام - فعمد إلى المغالط ، ولم تنطل الحيلة على نبي الله، فطالبه ببرهان لا يختلف عليه اثنان بتغيير سنة الله في كونه ، فبان عجزه، وافتضح أمره. يقول الله – تعالى- : [**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَاأُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**]([21]) .

الســـــــــرد التاريخـــــي : يقول : (وأذكر أنه (الشيخ محمد العزيبي) كان ذات مرّة يشـــرح الحديث الصحيح : **" إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى هَاشِمًا مِنْ قُرَيْشٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ "**([22]) ، فانبرى أحد الجالسين ليتفيهق على الشـــيخ، وقد شممت في قوله رائحة الإلحاد، فأفحمته بما قرأته في إحدى المجلات من أنّ ماوتسينونغ إذا سبح اثني عشر كيلومترا، فيصدّق هذا القول ، أمّا حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيعترض عليه)([23]) .

الشواهـــد الشعريّة : وقد ساق الشواهد الشعريّة لتوضيح المعاني اللغويّة ، ولتقرير بعض المفاهيم الإسلاميـــة ، والقيم الأخلاقيّة، ومن أمثلة ذلك قوله : (وطور الشباب ما بين البلوغ إلى الكهولة ، حيث يبدأ في الانتشار بالرأس الشيب، وهو علامة انقضاء الشباب كما قال الشاعـــر:

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيبُ([24])([25])

ويقول في ذمّ الطيش، والتحذير من الاندفاع وراء الرغبات الجامحة: (واحذر طيش الشباب، فربّ نزوة أورثت ندامة، فاكبح جماح نفسك، واحذر هواك، ولا تستسلم للرغبات الجامحة فإنها مدعاة للوقوع في شرك الرذائل، واحذر أن تكون مطيّة الجهل، وأن ينطبق عليك قول النابغة الذبياني:

وإن يك عامر قد قال جهلا فإن مطيّة الجهل الشباب([26])([27])

وفي ذمّه للعطالة ، وما تجـــرّه على الإنسان من المفاسد والمهالك ، يقول : (وأنّ العطالة عن العمل تدفع الإنسان إلى التسكّع لقتل وقت الفراغ فيقع في مصيدة رفاق السوء، والحاجة إلى جمع المال الحرام بالسرقة والقمار والرشوة، وقد قال - صلى الله عليه وسلم -: " **نِعْمَتَانِ مَغْبُـــونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَـــرَاغُ** "([28]) ، ولله درّ القائل:

المالُ، والفراغُ، والجدةْ مفسدةٌ للمرء أيُّ مفسدةْ)[30]

وقد يختـــم بعض محاضراته بأبيات شعريّة ، مثل ما كان في محاضرة (رسالة إلى الشباب) ، وذلك بعد ســـرد علميّ نبّه فيه إلى ضرورة الاستفادة من هذه الطاقات، حيث يقول : لرعاية الشباب والاستفادة منهم وإفادتهم يمكن تصنيفهم بحسب العمر، وبحسب البيئة ، وبحسب التدين ، وبحسب المستوى العلميّ ، وهو أمر عملي مفيد في معرفة مدى التجانس بين أفراد كلّ فئة، وما يتميّزون به من خصائص، وما يناسبهم من

الأنشطة التي تساعدهم على اكتشاف مواهبهم ، ودفعهم إلى إشباع ميولهم إشباعا سليما خاليا من الانحراف، ولله درّ القائل:

أمل البلاد على رقيّ شبابها إن كان حيّا لا تخاف زوالا([31])([32])

الحكـــــم : الحكم هي إحدى السّمات البارزة في كتابات القماطي ، وقد ساعده في ذلك كثرة محفوظه من الحكم نثرها وشعرها، وكذلك ثقافته الواسعة، فتشكّل هذا المدّ الساحر، لتتزين به تلك الكتابات، وقد أحسن بهذا التوظيف من ناحيتين، هما: جمال الاستخدام، ودقة التعبير، ومن تلك التوظيفات قوله: (وأصبح الخريج الجامعيّ ضعيفا علميّا، فخرج تلاميذ ضعفاء؛ لأن (فاقد الشيء لا يعطيه) ، ثم رحل المدرسون العرب ، وتوقف التعيين، وتوقف بناء المدارس، وأهملت من جميع النواحي ، وحينما أريد في السنوات الأخيرة إصلاحها وقع النهب في المال العام بصورة مفزعة)([33]) ، فالقماطي في هذا المقام ، حينما وظّف هذا القـــول (فاقد الشيء لا يعطيه)([34]) ، ووقف مستحضرًا تلك الفوضى العارمة ، التي أخرجت نشأ ضعيفًا علميًّا ، وهو بذلك يصرّح بأن تلك الشهادات التي تمنحها المؤسسات الجامعيّة بالنظر إلى جلّها هي غير مطابقة مســـتوى الخريج ، وهذا الخريج هو في حقيقة الأمر بين حالين إمّا أن يترك العمل بهذه الشهادة ، وهذه مصيبة نتـــج عنها ضياع سنين من عمره على مقاعد الدرس، وإمّا أن يدخل بها سوق العمل ، وهذه المصيبة الأعظم ، لما سيترتب عن ذلك من ضياع للحقوق ، وعدم القدرة على الاتيان بالواجبات، ورحم الله ابن حجر العسقلاني حين قال :(وإذا تكلم المرء في غير فنه أتى بهذه العجائب)([35])

وللحكم الشـــعريّة : مكانها في هذا الكتاب، كيف لا؟ وهو الذي يتمتع برصيد هائل من المحفوظ الشعري ، قديمه وحديثه، وهو لا يكاد يجري أحاديثه اليوميّة إلا مستشهدا بروائع الشعر العربي، فما بالك في مقام الكتابة ؛ إذ هو حليها وحللها، ومثالاً لذلك قوله: (.... ولكي ننطلق في مستقبلنا السعيد –بإذن الله تعالى- نؤدي رسالتنا بنجاح ينبغي أن نتذكر الدور الذي كان يؤديه المسجد قبل أربعين سنة : إن التشبه بالرجال فلاح)([36]) ، فالقماطي نراه ختـــم عبارته بهذه الحكمة ، لترسـيخ مبدأ الأصالة ، والسير على نهج الأوائل من أعلام البلد، وإعطاء المساجد دورها الكبير التي كانت تؤديه في حقبة زمنيّة ماضية، وهذه الحكمة جاءت على لسان الشاعر حين قال:

فتشبّهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح[37]

الأمثـــال : الشـــيخ محمد القماطي دائمًا ما كان حاضر الإجابة ، يعـــزز أقواله بالأمثال ، وقد حفظنا عليه كثيرا من الأمثال ، مشافهة قبل أن نقف عليها في مظانّها من الكتب والتآليف ، ومن تلك الأمثال التي تلقيته منه قولهم : (أن ترد الماء بالماء أكيس)[38] وقولهم : (أحشفا وسوء كيلة)[39] وغير ذلك كثير، الأمـــر الذي سعى بي إلى الاهتمام بدرس الأمثال ، رجاء أن أكـــون على خُطى هذا العلم الجليل ، فنحن لا نستغرب أن نرى في هذا الكتاب لفيفًا من الأمثال، إذ كيف بالذي يفيض أمثالا وحكمًا لا يبثّ نفائسها في هذه الرياض المعرفيّة ، وها هو يعظ الشباب ويوجههم ، ويحذّرهم من مغبّة الظلم ، ويرشدهم إلى مناحي السعادة، وضرورة التمسّك بتعاليم الشرع الشريف ، والعادات النبيلة لهذا المجتمع المسلم، وأن يقتدوا بالمثل العليا في هذه الحياة ، فيقول: (فالعاقل–كما قيل- من وعظ بغيره ولنتعلّم الدروس العظام من الماضي؛ لنبني المستقبل السعيد –بإذن الله- بإيمان وإخلاص، وإخاء ومساواة، واحترام، ومحبة، وألفة ، وعدالة، وحرّية، وعلم، وتواضع [40] فقوله: (فالعاقل من اتعظ بغيره) مثل ساقه في هذا المقام وأصله (والسعيد من اتعظ بغيره)[41] ، ونراه يستشهد بالأمثال الليبيّة العاميّة في دروســـه ومواعظه وحال حديثة مع أحبابه ومريديه ، فكان لهذا مسحة جماليّة في هذه المحاضرات ، ومن بين ما نقله لنا متبعًا استشهاده بالأحاديث الشريفة المثل الليبي القائل: (جارك صابونك) فيقول : (وفي الحديث الصحيح: " **مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ** "[42] ، وفيه – أيضًا- : " **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ.** "[43] ، والليبيّون يقولون: (جارك صابونك) لشدّة اتصال الجار بجاره ، ومعرفته بأسراره حتى إنه يعوّضه في كثير من الأحيان عن حاجته لبعض الأهل).[44]

الأقـــوال المأثـــورة : القماطي جمع بين الأقوال المأثـــورة قديمها وحديثها، الفصيح منها والعاميّ والأعجمي، مستخدمًا منها أدوات لتقريب الصورة لدى المتلقّين، وشـــدّ انتباههم ، ونراه يقرّ بعضها ويجعلها من مبادئ البحث العلميّ ، سالكاً بذلك سبل الأوائل في البحث في العلوم ، وقد استشهد في محاضرة له بقول سفيان الثوري ، حين قال : " من مبادئ البحث العلميّ التي اعتمد عليها علماؤنا في مصنّفاتهم: " لما استعمل

الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ([45]) ([46]) ، واستقى القماطي من العصر الجاهلي أقوالهم وجعل منها وقفات على أعتاب ذلك الزمن السحيق ، ومن ذلك قوله : (وقد كانت العرب تقسم بها (الرحـــم) بقولها : ناشدتك الله والرحم ، ومع ذلك تقطّعها؛ لأنها تراها من أسباب التنافس، فنهى الله –تعالى - عن ذلك وأمر بوصلها بقول الله – تعالى -: **[وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ])**([47])

وقد كثر استشهاده بأقوال الفقهاء وعلماء الشريعة ، لانطباعه بهذا الطابع الأصيل، ومن ذلك قوله: (وفي تلونه يتحول إلى أممي يرعى الهنود الحمر، والأقليات كالأكراد بدعوى حقوق القوميات في التعبير عن ذواتها ، متناسا إخواننا الأمازيغ ، ومتجاهلا المبدأ القائل : (الناس مأمونون على أنسابهم) محاولا فرض العروبة عليهم عرقا وإنما العروبة اللسان)([48]) ، فقوله : (الناس مأمونون على أنسابهم) ([49])، مما يتناقله علماء الشريعة ، لما يترتّب على هذا المبدأ – كما أشار- من أحكام ، وقد جاءت الشريعة للحفاظ أنساب الناس وانتماءاتهم، قال - تعالى - : [**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**] ([50])

الســـجع: فـــــنّ السجع من الفنون البلاغية التي عرفها العرب قديمًا، وقد استخدمها الكهان في الجاهليّة ، ولعلّ هذا الأمر مردّه إلى الجرس الموسيقي ، وما يحدثه من أثر في النفوس ، فالسجع كما ذكر الدكتور حسن عبد الرزاق ، هـــو: " توافق الفاصلتين من النثرعلى حرف واحد في الآخـــر، وتسمى كل واحدة من العبارتين اللتين وردت بهما الفاصلتان المتفقتان قرينة ، لمقارنتها لصاحبتها، كما أنها تسمى –أيضا- فقرة" ([51]) وهذا الفنّ نجده في بعض ثنايا كتابات القماطي ، ولم يفرط في استخدام هذا المحسّن ، إذ كان وجوده بما تقتضيه جودة الكلام، فجاء المبنى موافقًا للمعنى ، وأكثر ما كان من سجع الكاتب في مقدّمات محاضراته ، فيقرع بها الأسماع ويجذب بها الانتباه، ومثال ذلك قوله : (الحمد لله رب العالمين، والصلاة والســـلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وقد عنون لإحدى محاضراته بهذا الفن، فازدهى بأبهى حلل الجمال ، فأطلق على تلك المحاضرة عنوان : (دور المسجد بين الماضي البعيد والمستقبل السعيد) ، ولعلّ ما في هذه التسمية من عفوية ، وسهولة الفكرة، ما يجعل المتلّي يتمايل مع إيقاع الجناس ، بين كلمتي (السعيد والبعيد)، وقوله منبها الشباب من خطر المفاســـد التي قد يجذبها رفاق السوء : (الشباب قد ينخرهم ما هو

أخطر من الســـوس فيتلفهم ، وقد يتــمّ ذلك عن طريق العصابات والمجرمين المحترفين، والماديين النفعيين، فإذا علمت –أيها الشاب- المهالك والمفاسد للشباب أيقنت أن من يدعوك ينوي استغلالك ، وقتل شبابك، فتذكّر قول الله –تعالى-: [**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**][52][53] ، هذا التنبيه فيه من جرس السجع ما يقرع أسماع الشباب بشدّة، ويدق في أذهانهم ناقوس الخطر، وقد أبدع في ختم هذا التنبيه بقوله: (فتذكر قول الله – تعالى-) وهنا كأنه أخذ بمجامع القلوب ، وسيطر على فضاءات الفكر، ليضعها في حال تذكّر واعتبار أمام كلام الحكم العدل - سبحانه وتعالى- .

الاستطراد : كان للمرجعية الشرعيّة واللغوية للكاتب أثر ظاهر في الاستطراد ، الأمر الذي قد يخـــرج به من سياق السرد التاريخي ، أو العلمي، لإيضاح بعض الجزئيات الشرعية، أو اللغوية ، أو النحويّة، أو الدلالية، وهذا أمر زاد من قيمة الكتاب ، لما حواه من إيضاحات مهمة، جاءت بعبارات وافية ومختصرة .

والشيخ حريص كلّ الحرص على إفهام المتلقي في طرحه؛ لذا كان شرح المفردات التي جاءت في سياق الاستشهاد، ويعتريها بعض الغموض من أولى اهتماماته، يتناولها بالشرح والتفسير؛ حتى يزيل اللبس والغموض على أذهان مسامعيه، ومن أمثلة ذلك قوله في محاضرة (رسالة إلى الشباب) : (ولا يغرنك الثناء الخادع الذي يغريك بفعل المنكر، ولتضع نصب عينيك قول أمير الشعراء أحمد شوقي –رحمه الله – تعالى- :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرّهنّ الثناءُ[54]

والغواني جمع غانية ، وهي الجميلة المستغنية بجمالها عن الحليّ).

التناص : توظيف النصوص الدينيّة والأدبيّـــة من الخصائص البارزة في كتابات القماطي ، وهذا الاستخدام هو ما يعرف في العلم الحديث (بالتناص) ، ولا ريب أن لهذا المصطلح جـــذورًا عربيّة أصيلة عرفت بغير هذا المسمى ، وإن كانت نابعة من المضامين نفسها. يقول أحمد عطا : (ولمغزى المصطلح (التناص) جذور عربـــيّ أصيلة، وإن أخذت مسميات ودلالات مختلفة ، ومع ذلك فهي تصبّ نصوص عربيّة قديمة ومتجدّدة ، وقد تنوّعت مفاهيم تلك الحقول في العصر الحديث ما بين السرقات والمعارضات الشعريّة ، والمناقضات ، والاقتباسات، والتضمينات، والإشارات،

والتلميحات، .....، ولقد تنوّعت روافــد هذا المصطلح في الأدب المعاصر بتأثير مدرســـة النقد الجديد ، والأساس في جلّ الروافد هو التناص ، انطلاقا من النص الشعري أو النثري) (55) ، وقوله في محاضرة : (رسالة إلى الشباب) ، (ويطلق لفظ الشباب - أيضا - على مرحلة النمو والزيادة في القوّة ، بعد أن يشبّ الطفل عن الطوق) (56) فعبارة (أن يشبّ الطفل عن الطوق) تناص مع المثل العربي : (شبّ عمرو عـــن الطوق)(57) .

الخاتمة:

1- من السمات الأسلوبيّة التي ميّزت هذا الكتاب، استخدام المؤلف اللغة العربيّة السهلة التي يفهمها الصغير والكبير، والمتعلّم والأميّ ؛ لأن موضوعاته رسائل يبثّها لمختلف شرائع المجتمع.

2- كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبويّة الشريفة ، والأبيات الشعريّة والأمثال والحكم، كما يورد من قصص الأوائل ما يخدم به موضوعه.

3- ابتعد الكاتب عن التكلّف في الصنعة البديعيّة، اللهمّ إلا ما كان عفوًا، وإن معظم أسجاعه كانت في مقدّمات الموضوعات.

4- تأثّر الكاتب بالأساليب القرآنيّة والمصطلحات الشرعيّـــة والفقهيّة، واستدعاؤه لشخصياتٍ تاريخيّة، وإسقاط أحوالها ومآلاتها على الواقع.

5- توسّـــع المؤلّف في توضيح بعض الكلمات والمصطلحات اللغويّة والشرعيّة، توسّعًا لغويًّا؛ لبيان المعنى المراد.

6- إضافة إلى ما قد سبق ذكره فإن الكتاب يعدّ مرجعًا تاريخيًّا، ذكر فيه مؤلفه شخصيات دينيّة وعلميّة وسياسيّة، كان لها الدور البارز في حركة التاريخ الليبي.

التوصيات:

1- الاهتمام بتراث الشيخ العلمي، وطبعه ، ونقل المسموع منه إلى مكتوب.

2- تضمين بعض الموضوعات التي تضمّنها الكتاب في المناهج الدراسيّة، بمختلف المراحل التعليميّة، مثل محاضرة (رسالة إلى الشباب).

3- الاستفادة من تجارب المؤلّف -رحمه الله تعالى- في التوسّع العلمي والمعرفي، فلم يركن إلى الموروث القديم، ولم يترك الجديد المفيد، بل كان يبحث عن الحقيقة، عاملاً بقول القائل: "الْعِلْم ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ،كُلَّمَا أَصَابَ مِنْهُ شَيْئًا حَوَاهُ".

الهوامـــــــــــــش :

1- أبو محمد أحمد بن محمد، فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، تحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، الناشر: دار الآفاق العربية، الطبعة: الأولى، 1421 هـ- 2001م، ص 191.
2 - محمد منصف بن عبد الله القماطي، محاضرات في ثورة السابع عشر من فبراير الإسلامية، ص55-56.
3- الواقعة 63-64.
4- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ، رقم الحديث: 2320.
5- أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، دار بيروت، لبنان، ت 1986، ص 46.
6- محمد منصف بن عبد الله القماطي، محاضرات في ثورة السابع عشر من فبراير الإسلامية، ص75.
7- المصدر السابق، ص 61.
8- محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دارالفكر–بيروت، رقم الحديث 1894.
9- الأحزاب 56.
10- النساء 1.
11- محمد 22.
12- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة،الطبعة: الأولى، 1422هـ، رقم الحديث:6138.
13- النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف،رقم الطبعة: 2، ص: 109.
14- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1410، رقم الحديث:5759.
15- أحمد رفيق المهدوي، ديوان أحمد رفيق المهدوي، المطبعة الأهلية، بنغازي، ط الأولى، 1962ص 141.
16- البقرة 195.
17- محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق :أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي–بيروت، رقم الحديث:1264.
18- القماطي، محاضرات، 14.
19- محمد بن إسماعيل أبوعبد الله البخاري الجعفي ، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق :د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة–بيروت، الطبعةالثالثة، 1407 – 1987، رقم الحديث:1995.
20- القماطي، محاضرات، 83.
21- لبقرة 195.
22- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، رقم الحديث:2276.
23- القماطي، محاضرات ، 13.
24- أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، دار بيروت، سنة النشر: 1406 - 1986-ص: 46
25- القماطي، محاضرات، 79.
26- النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1416هـ 1996م، ص83.
27- القماطي، محاضرات، 82.
28- محمد بن إسماعيل أبوعبدالله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة–بيروت، الطبعةالثالثة، 1407 – 1987، رقم الحديث: 6049..
29- أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم، الأرجوزة ذات الأمثال، تحقيق: أبو يعلى البيضاوي، سلسلة كشف خبايا الزوايا من تراث السلف وكنوز الخلف، ص: 7.
30- القماطي، محاضرات، 88.

31- أحمد رفيق المهدوي، ديوان أحمد رفيق المهدوي، المطبعة الأهلية، بنغازي، ط الأولى، 1962ص 141.
32- القماطي، محاضرات، 93.
33- القماطي، محاضرات، 39.
34- د أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م، مادة فقد.
35- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دارالمعرفة- بيروت،1379، ج3،ص584.
36- القماطي، محاضرات، 12.
37- ديوان السهروردي، تحقيق كامل مصطفى الشيبي، بغداد، مطبعة الرفاه، 2002م. ص: 62
38- أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق: محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة - بيروت، لبنان ج1 ص32.
39- المصدرالسابق ج1 ص207
40 القماطي، محاضرات، 50.
41- التمثيل والمحاضرة، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية، 1401 هـ - 1981 م ص28.
42 أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري،الناشر : عالم الكتب - بيروت،الطبعة : الأولى ، 1419هـ - 1998م، رقم الحديث:6496.
43- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، الموطأ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان، أبو ظبي، الإمارات، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م، رقم الحديث:3434.
44- القماطي، محاضرات، 76.
45- إبراهيم بن موسى بن أيوب الأبناسي، الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح، تحقيق: صلاح فتحي هلل، مكتبة الرشيد، الطبعة الأولى، ج2، ص713.
46- القماطي، محاضرات، 19.
47- المصدر السابق، 75.
48- المصدر السابق، 21.
49- أحمد الصاوي، بلغة السالك لأقرب المسالك، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1415هـ - 1995م، ج1، ص290.
50- الأحزاب،5.
51- حسن إسماعيل عبد الرزاق، البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبديع، المكتبة الأزهرية للتراث، ص193.
52- البقرة 195.
53- القماطي، محاضرات، 82.
54- أحمد شوقي، ديوان أحمد شوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص: 508 .
55- أحمد محمد عطا، التناص القرآني في شعر ابن نباتة، بحث مقدّم إلى المؤتمر الدولي الرابع لكليّة الألسن، جامعة المنيا، مصر، تاريخ النشر إبريل 2007م، ص2..
56- القماطي، محاضرات، 79.
57- أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، لبنان، ج:2، ص:137.